بحث مقدم من
الشيخ إبراهيم خليل عوض الله
الوكيل المساعد لدار الإفتاء الفلسطينية
مفتي محافظة رام الله والبيرة
عضو مجلس الإفتاء الأعلى في فلسطين

نيابة عن
سماحة الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
رئيس مجلس الإفتاء الأعلى في فلسطين
خطيب المسجد الأقصى الكمبارك

حول
"معوقات تجديد الفكر الإسلامي وسبل المواجهة"

إلى
المؤتمر العام الواحد والعشرين للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
"تجديد الفكر الإسلامي"
القاهرة- جمهورية مصر العربية

الفترة من
8-11 ربيع الأول 1430 هـ
الموافق 5 – 8 آذار 2009 م

الفهرس

الموضوع		صفحة
الفهرس		2
تمهيد		3
معوقات تجديد الفكر الإسلامي		5
	الجمود والتقليد	5
	الغلو المذهبي	8
	مصادر التثقيف السيئة	11
	تراجع دور مؤسسات التعليم الديني	12
	الغزو الفكري والثقافي	13
	الآثار السلبية للعولمة	16
سبل مواجهة معوقات تجديد الفكر الإسلامي		18
خلاصة البحث وخاتمته		19
المراجع والمصادر		21

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

من أبرز خصائص الثقافة الإسلامية مرونتها، فهي تحافظ على التمسك بالثوابت والأصول، وفي الوقت نفسه فإن لديها القابلية للتكيف مع المستجدات في إطار المساحة المتاحة لذلك في ظل التمسك بالثوابت الخاصة بأهداف الثقافة الإسلامية وغاياتها العليا، والأخذ بالأسس والقواعد العامة التي تقوم عليها الثقافة الإسلامية، التي تتميز بالعموم والشمول يمكن من إدراج العديد من الحالات الجزئية والفردية تحتها.

ويرتبط بالغايات الثابتة مرونة في الوصول إليها، فيمكن أن تتغير أشكال الوسائل الموصلة للأهداف من زمن أو ظرف لآخر، كما أن الثبات في الأسس والمبادئ يرتبط به مرونة في تطبيقها على الحالات والوقائع المستجدة.([1])

وإن الدعوة إلى تجديد الفكر ترد في سياق الثبات والمرونة المشار إليهما، فالفكر الخاص بالثوابت يبقى ثابتاً، وأما الذي يتعلق بالأساليب والوسائل والمستجدات التي تخضع للتغيير والتبديل تبعاً للظروف والأزمنة والأمكنة والشخوص، فهي المستهدفة بالتجديد، حتى تواكب التغير المتسارع الذي يشهده الناس عبر الزمان والمكان، وبخاصة في مثل عالمنا المعاصر .

ويمكن تعريف التجديد في الفكر الإسلامي، على أنه: العودة إلى الأصول وإحيائها في حياة الإنسان المسلم؛ بما يمكن من إحياء ما اندرس، وتقويم ما انحرف، ومواجهة الحوادث والوقائع المتجددة، من خلال فهمها وإعادة قراءتها تمثلاً للأمر الإلهي المستمر بالقراءة، الوارد في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ . ([2])

وتواجه حركة التجديد الفكري والثقافي عراقيل ومعوقات كثيرة، مما يستدعي تقصيها ومعالجتها ببث الوعي حول التصدي لها، ومعالجتها بالمناسب الذي يساعد على فتح الآفاق للتجديد المنشود.

وتجديد الفكر الإسلامي يدور في فلك عملية مستمرة تستمد شرعيتها من نهج السلف الصالح في فهم النصوص الشرعية، وطريقة تعاملهم مع الوقائع والأحداث المستجدة، والحكم عليها في ضوء مبادئ الإسلام وقواعده وأحكامه العامة.

فالتجديد لا يعني الخروج على المبادئ، أو إلغاء المسلمات، أو إبطال الأحكام الشرعية، أو التفكير بعيداً عن روح النصوص؛ وإنما التجديد يعني تأصيل ما يحتاج إلى تأصيل، وقراءة المسلمات برؤية جديدة، وإحياء الفكر الديني بما يتناسب مع لغة العصر، والاجتهاد من داخل الدليل وليس من خارجه، وقراءة الدليل بما يتفق مع مقاصد الشريعة

---

[1] مقرر الثقافة الإسلامية، جامعة القدس المفتوحة، ص 76-78.

[2] (العلق:1) ، والتعريف المذكور أورده أ.د سيف الدين عبد الفتاح، أستاذ النظرية السياسية، جامعة القاهرة، ضمن مقال بعنوان التجديد، منشور على موقع إسلام أون لاين.

المقدسة، والاجتهاد في القضايا الجديدة.. كل ذلك وفقاً لآليات ووسائل البحث العلمي المتعارف عليها، واتباع القواعد المتبعة في الاجتهاد.

يقول اليوسف: إن ادعاء أي جهة أن فهمها للنصوص هو الإسلام نفسه، وأن مخالفته مخالفة للإسلام ينطوي على مخاطر لا تقل خطورة عمن يجتهد من خارج النصوص الدينية، ولعل خطر ادعاء امتلاك الحقيقة الدينية المطلقة أعظم من خطر من يجتهد متجاوزاً النصوص الدينية الصحيحة؛ لأنه باسم الإسلام ينصب نفسه وصياً على الناس، بل وعلى المجتهدين والمجددين الآخرين، في حين أنه لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة، كما أن فهم أي فقيه أو مجتهد للنص ليس حجة على الفقيه أو المجتهد الآخر.

ما نحتاجه فعلاً هو التجديد من داخل النصوص، وإن أدى ذلك لإعادة النظر في بعض المسلمات، ففهم الماضين من العلماء ليس حجة مطلقة ودائمة، أما مجاله فواسع بسعة الفقه والشريعة والأفكار والمفاهيم والرؤى والأدلة. ([3])

وخلاصة القول أن التجديد في الفكر الإسلامي ينبغي أن ينشد في إطار الضوابط الشرعية، لتحقيق الأهداف العليا للإسلام.

[3] مفهوم التجديد الديني، عبد الله اليوسف، 2007.

معوقات تجديد الفكر الإسلامي

يمكن استعراض أبرز المعوقات التي تقف في سبيل العمل على تجديد الفكر الإسلامي في الأبعاد التالية:

(1) الجمود والتقليد

تعامل المسلمون في العصور الأولى للإسلام مع قضيا الفكر والاجتهاد بانفتاح عقلي، في إطار التقيد بأصول الإسلام ومبادئه المقررة شرعاً، وإن الانغلاق الفكري، والتبعية العمياء للمذاهب والآراء البشرية أمر يتنافى مع روح الإسلام وخصائصه ومقومات بقائه ديناً صالحاً لكل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال ابن القيم في كتابه"إعلام الموقعين": إن المقلدين حكموا قدراً وشرعاً بالحكم الباطل جهاراً، ومخالفين لما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، فأخلوا الأرض من القائمين لله بحجة، وقالوا لم يبق في الأرض عالم منذ العصور المتقدمة.

والإسلام لا يريدنا ببغاوات نردد ما نسمع دون تبصر ولا تفكير، غير أن بعضاً منا يريدون أن يكونوا سنّاً في دولاب آلة بإلغاء عقولهم، وتبعيتهم المطلقة للآخرين ومذاهبهم.

فمن أبرز العراقيل التي تواجه التجديد الفكري الاتباع الأعمى دون حجة أو دليل أو تفكير لشخص أو عادة أو جماعة أو حزب، وهو ما يطلق عليه التقليد، وهو السبيل الذي اتبعه من وقفوا في صف المخاصمة والعداء لدعوات المصلحين، وعلى رأسهم الرسل والأنبياء عليهم السلام، وقد حفل القرآن الكريم بذكر بعض السجال الذي كان يدور بين الأطراف بهذا الخصوص، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ([4])

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ([5])

والاتباع الأعمى يفضي إلى الجمود الذي يعني الإصرار على تمثل وضع أو حال لمجرد أنه الموروث أو المعتاد، مع توفر بدائل أفضل وأصلح أو مع بيان عور الحال واعوجاج المسار.

فالتقليد والجمود عقبات تعترض محاولات التجديد والتغيير نحو الأصلح، وقد ذم الرسول صلى الله عليه وسلم الاتباع الأعمى، فقال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا"([6]).

---

[4] البقرة :170.

[5] المائدة :104.

وقد تأتي إرادة الرجوع عن الاتباع الأعمى بعد فوات الأوان، يوم لا ينفع الندم، وقد ذكر سبحانه صورة لذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[7] وقوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [8]

و يذكر القرآن الكريم عن فرعون قوله لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[9]

واعتبر الله الانقياد التقليدي شكلاً من أشكال استخفاف العقول، فقال سبحانه عن فرعون وقومه في هذا المجال: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾[10].

وعَنْ عَلِيٍّ كرم الله وجهه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيُطِيعُوا فَأَغْضَبُوهُ فِي شَيْءٍ فَقَالَ اجْمَعُوا لِي حَطَبًا فَجَمَعُوا لَهُ ثُمَّ قَالَ أَوْقِدُوا نَارًا فَأَوْقَدُوا ثُمَّ قَالَ أَلَمْ يَأْمُرْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَسْمَعُوا لِي وَتُطِيعُوا قَالُوا بَلَى قَالَ فَادْخُلُوهَا قَالَ فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فَقَالُوا إِنَّمَا فَرَرْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ النَّارِ فَكَانُوا كَذَلِكَ وَسَكَنَ غَضَبُهُ وَطُفِئَتْ النَّارُ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ" [11]

ومن أقوال السلف الصالح في ذم الانغلاق المتمثل بالاتباع الأعمى لآراء الآخرين، قول أبي حنيفة: لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه.[12]

وقول مالك: ليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم، وقال رحمه الله: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.

وقال الشافعي: أجمع المسلمون أن من استبانت له سنة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحل له أي يدعها لقول أحد.

وقال أحمد: لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا.[13] وقال: لا تقلد دينك الرجال، فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا. [14]

---

[6] سنن الترمذي – باب البر والصلة – ما جاء في الإحسان والعفو.
[7] الأحزاب:67.
[8] البقرة:166.
[9] غافر:29.
[10] الزخرف54
[11] صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.
[12] نقلاً عن الانتقاء لابن عبد البر، ص 145.
[13] مقدمة صفة صلاة النبي للألباني ص46 فما بعدها.
[14] نقلاً عن مجموعة فتاوى ابن تيمية، ج 20، ص 212.

فالذين يتقوقعون في ظلمات المذهبيات يشكلون دعامة من دعائم الجمود الفكري، وهم مخطئون بغض النظر عن ذرائعهم، فالأصولية والسلفية مسميات مقبولة ومرغوبة إن فهمت على أنها أخذ بما ورد في الأصول المعتبرة مع إبقاء المجال مفتوحاً لمواكبة المستجدات والتطورات في إطار المرونة التي تتميز بها شريعة الإسلام.

وقد تعرض ابن القيم لقضية التمذهب في كتابه "إعلام الموقعين" فتساءل عن لزوم تمذهب العالم ببعض المذاهب المعروفة، وأجاب أنه لا يلزمه التمذهب بمذهب معين، إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولم يوجب الله ورسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة فيقلد دينه ودين غيره.([15])

"فالمفهوم الصحيح للسلفية ليس معناه الجمود والتقليد ومخاصمة العقل، بل الاستفادة من كل ما جاء في الفكر الإسلامي، والتفاعل مع مستجدات العصر حتى لا ينعزل الخطاب الديني عن التطورات المتلاحقة التي يعيشها العالم". ([16])

وكما أن الدعوة إلى محاربة التقليد الأعمى والجمود الفكري لا تعني محاربة السلفية والأصولية الصحيحة، فإنها كذلك ليست إباحة للأخذ بالبدع المحظورة، إذ إن البدعة في الدين تعني إحداث أمر لم يشرعه الله ورسوله، أو لم يرد فيه أصل في الشرع، فكل محدثة بدعة، و"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد" ([17])فالتجديد الفكري لا يتعارض مع العمل بالأصول الموروثة وترك البدع المحدثة، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ([18])

وحين يتولى المقلدون زمام الأمور سواء في مؤسسات التعليم أم غيرها فإنهم يكونون بمثابة حجرٍ يعرقل مسيرة التجديد والتنوير، والبعض يجد في التقليد سبيلاً للتملص من مسؤولية البحث في النصوص، مع أن ذلك متاح، والله خلق العقول لتستخدم في التفكير والتأمل والاستنباط، والحجر عليها يعطلها عن أداء ما أنيط بها من أدوار.

يقول ابن عبد البر في ذم التقليد ومبشعاً بالمقلدين:

يا سائلي عن موضع التقليد خذ	عني الجواب بفهم لب حاضر
وأصغ إلى قولي ودن بنصيحتي	واحفظ عليّ بوادري ونوادري
تبا لقاض أو لمفت لا يرى	عللا ومعنىً للمقال السائر
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنة ثم	المبعوث بالدين الحنيف الطاهر
الصحابة عند عدمك سنة	فأولاك أهل هدى وأهل بصائر
وكذلك إجماع الذين يلونهم	من تابعيهم كابراً عن كابر

[15] إعلام الموقعين (325/4)
[16] د.محمود حمدي زقزوق – وزير الأوقاف المصري.
[17] سنن أبي داود، كتاب السنة، في لزوم السنة.
[18] المائدة:87.

إجماع أمتنا وقول نبينـــــا مثل النصوص لذي الكتاب الزاهر
وكذا المدينة حجة إن اجمعــوا متتابعين أوائلاً بأواخـــــر
وإذا الخلاف أتى فدونك فاجتهــد ومع الدليل فمل بفهم وافـــر
وعلى الأصول فقس فروعك لا تقس فرعاً بفرع كالجهول الحائـر
والشر ما فيه ـ فديتك ـ أســوة فانظر ولا تحفل بزلة ماهـر

وفي ختام الحديث عن التقليد كعقبة أمام التجديد، نسوق ما روي عن أبي يوسف رحمه الله عندما جاء المدينة وناظر مالك في المكاييل وصفة الآذان وأخذ الزكاة من الخضر والبقوليات، فإنه رجع إلى قول مالك في الحال، وقال: "لقد رجعت يا أبا عبد الله إلى قولك، ولو سمع صاحبي ـ يعني أبا حنيفة ـ ما سمعت لرجع كما رجعت".

(2) الغلو المذهبي

الأصل في المذاهب الفقهية أو التنظيمات والأحزاب الإسلامية أن تكون لها أهداف نبيلة، تصب في خانة العمل بالإسلام وله، ومن المؤسف أن نجد انحرافاً عن هذه الغاية وتلك الأهداف نحو الانتصار للانتماء للمذهب أو التعصب للأحزاب بما يشبه الانتصار الذي كان سائداً في الجاهلية للذات والعشيرة والذي عبر عنه شاعرهم دريد بن الصمة، فقال:

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدُ

ومثلما كان التعصب القبلي في الجاهلية وصفاً للانحطاط والانحدار، فإن التعصب الفئوي والحزبي والمذهبي بين المسلمين أشد مقتاً من ذاك، فحين تعمي الانتماءات المذهبية عن الوقوف مع الحق، وتجر إلى التعصب الأعمى، فإنها تجر إلى ما جاء الإسلام الحنيف يحاربه من قيم الرذيلة والتي كان من أبرزها التعصب الأعمى للقبيلة، فقال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وسلم:" ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية"([19])

ولما كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله القود . فقال النبي صلى الله عليه وسلم " دعوها . فإنها منتنة ".([20])

وقال سبحانه مخاطباً أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.([21])

[19] سنن أبي داود، كتاب الأدب، في العصبية.
[20] صحيح مسلم، البر والصلة والآداب، نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً.
[21] المائدة:77

فالله يحذر من الخروج عن إطار العبودية الحقة، وينبذ إتباع الأهواء، وتقليد من تحكمت فيهم المصالح والأمزجة، وما ذلك إلا زيغ عن الحق وابتعاد عن الهدى، وطرق لأبواب الأماني والشهوات واستحواذ الشيطان، وذلك سبيل الضلال والإضلال.

وأرسى الإسلام مبادئ تسمو بالإنسان، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (22)

وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمٌ حَرَامٌ ثُمَّ قَالَ أَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ ثُمَّ قَالَ أَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ قَالَ وَلَا أَدْرِي قَالَ أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ قَالُوا بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ " (23)

ومنع الإسلام ظلم المخاصم أو المخالف، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (24)

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (25)

وقد سطر علماء السلف الصالح وأئمتهم مواقف من نور حين تجردوا من التعصب لآرائهم أو مذاهبهم، فكان عالمهم يقول: "قولي صحيح يحتمل الخطأ" وكان يقدر رأي مخالفه فيقول:"رأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

وكانوا يعتقدون أن البشر معرضون للخطأ، وأن لا عصمة إلا للرسل، وعبر عن ذلك إمام أهل المدينة مالك بن أنس، فقال: " كل يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر" ـ يعني الرسول صلى الله عليه وسلم.

غير أن بعض من اتبع هواه انتصر لنفسه ومذهبه، ولم يعد يرى الحقيقة إلا من منظوره الخاص دون أن يحتكم إلى أسس العدل والموضوعية والإنصاف والنزاهة، فصار حاله ومقاله يعبر عن الانغلاق والتحوصل المذهبي، فلا يرى إلا من منظار مذهبه، بل يعادي مخالفه، ولو كان الاختلاف يدور حول فروع وصغائر تحتمل الاجتهاد، وبعضها يحتمل أن يكون فيه صواب، أو وجود الأولى منه، ومن الطبيعي أن تقف المغالاة المذهبية والحزبية في صف العداء للتجديد

---

[22] الحجرات :13.

[23] مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

[24] المائدة:8.

[25] الأنعام:152.

والتغيير، فهي لن تقبل إلا ما يوافقها دون سواه، وستحل الطامة على كل توجه نحو التجديد الذي لم يحظ بموافقة المذهب.

وغالباً ما يركز غلاة المذاهب على أمور ومظاهر ثانوية، ويدافعوا عنها على اعتبار أنها أموراً رئيسة ومهمة، كمن يجعل همه قصر الدشداش وطول اللحية.

وفي سياق بيان ضرر التقليد وخطره على الدين، ترد بعض أقوال متعصبة المذاهب من الفقهاء، في المبالغة في مدح أئمتهم والحط من قدر غيرهم من أئمة المذاهب المقتدى بهم.

يقول الحصفكي وهو من أشهر المؤلفين في الفقه الحنفي في "الأشباه": "إذا سُئلنا عن مذهبنا، ومذهب مخالفنا، قلنا وجوبا: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب مخالفنا خطأ يحتمل الصواب".

وقال الحصفكي في جملة أبيات في مدح أبي حنيفة رحمه الله:

فلعنة الله ربنا أعداد رمل على من رد قول أبي حنيفة

وقال الحصفكي كذلك منزلاً أبا حنيفة منزلة لم يبلغها أحد من الصحابة: "والحاصل أن أبا حنيفة النعمان من أعظم معجزات المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد القرآن، وحسبك من مناقبه انتشار مذهبه، ما قال قولاً إلا أخذ به إمام من أئمة الأعلام، قد جعل الله الحكم لأصحابه وأتباعه من زمنه إلى هذه الأيام إلى أن يحكم بمذهبه عيسى عليه السلام" ، وقال أبو الحسن الكرخي الحنفي: "وكل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة، أو منسوخة، وحديث كذلك، فهو مؤول أو منسوخ". بلغت الجرأة ببعض متعصبي المذهب الحنفي أن وضع حديثا في مدح أبي حنيفة والتحذير من الشافعي رحمهما الله وهو: "أبو حنيفة سراج الأمة... ويكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس هو أضرُّ على أمتي من إبليس"!!!.

ومما جاء في التعصب لمالك وأتباعه ومذهبه ما شاع عند العامة: "لو لم يكن مالكاً لكان الدين هالكاً"، ولله در الإمام منذر بن سعيد حيث صور تعصب المالكية وما لاقاه من ذلك حيث قال:

عذيري من قوم يقولـــون كلما طلبت دليلاً هكذا قـــال مالك

فإن عدت قالوا: هكذا قـال أشهب وقد كان لا تخفى عليه المسالك

فإن زدت قالوا: قال سُحنُــن مثله ومن لم يقل ما قاله فهـو آفك

فإن قلت: قال الله ضجوا وأكثـروا وقالوا جميعا: أنت قرن مماحك

وإن قلت: قد قال الرسول، فقولهـم أتت مالكاً في ترك ذاك المسالك

وقال إمام الحرمين الجويني الشافعي: "نحن ندعي إنه يجب على كافة العاقلين، وعامة المسلمين شرقاً وغرباً، بعداً وقرباً، انتحال مذهب الشافعي، ويجب على العوام الطغام والجهال الأنذال أيضا انتحال مذهبه، بحيث لا يبغون عنه حولاً، ولا يريدون منه بدلاً".

وقال أبو إسماعيل الأنصاري الحنبلي:

أنا حنبليٌّ ما حييت وان أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلـوا

وقال أحد الحنابلة، ولعله الأنصاري:

لئن قلد الناس الأئمـــة إنني في مذهب الحبر ابن حنبل راغب

أقلد فتواه وأعشـــق قوله وللناس فيما يعشقـون مذاهب ([26])

(3) مصادر التثقيف السيئة

تستقى ثقافة الأفراد والمجتمعات من مصادر عديدة، أبرزها وسائل الإعلام على مختلف أصنافها، من إذاعـة، وتلفـاز، ومجلات، ومناهج التدريس، والبيئة المحيطة. ويؤثر في التثقيف الوقت الذي يمارس فيه، والأسلوب الذي يعرضه.

فتـشكل وسـائل الإعـلام وبخاصـة المرئيـة منهـا رافـداً مهمـاً للتثقيـف الشخـصي والمجتمعـي، وبخاصـة زمـن انتـشار الفضائيات وسرعة الاتصال واتساع نطاقها ومجالها وتعددها ومراكزها وكثرتها.

وهي متاحة لمعظم الناس صغيرهم وكبيرهم، وعلى مختلف مستويات ثقافتهم وتعليمهم ومستوياتهم الاجتماعية.

وحين تبث وسائل الإعلام المفيد والصالح من البرامج فإنها تترك بصمات طيبة على سلوك الناس، وأما حين تنشر الرذيلة والانحلال والفساد فتصبح آثارها مدمرة، فهي تشكل مصدراً مؤثراً في سلوك الناس وثقافتهم.

ولدى وسائل الإعلام قدرة على تزيين الأمور وتصويرها بالشكل التي تريد، فإذا ما أرادت تشويه فكرة أو مبدأ وقيمة من القيم فإنها تجد سبيلها لذلك عبر الأغنية والمسلسل والبرامج وحتى الدعاية التجارية.

ولمواجهة عنفوان هذه المصادر والوسائل يلزم القيام بجهود مضنية، وإلا فالدمار حاصل لا محالة.

يقول الرشودي(27): "إن شبكات الاتصال الحديثة، والقنوات الفضائية، وبـرامج الإعلانـات، والـدعايات للـسلع المختلفة، تسهم في هذا الجانب، وهي مصحوبة بالثقافة الجنـسية، الـتي تخـدش الحيـاء والمـروءة والكرامـة الإنـسانية، ولقد أجريت دراسات حول خطورة القنوات الفضائية ـ بما تبثه من أفلام ومسلسلات جنسية فاضحة ـ على النظـام التعليمي والحياة الثقافية، والعلاقات الاجتماعية، ونمط الحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي، إضـافة إلى زيـادة نـسبة معدلات الجريمة، ليس في الدول النامية وحدها، بل في كل الدول الأوروبية الغنية، وزيادة معدلات الفقـر والبطالـة، وتوهين العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، والظلم الاجتمـاعي الـذي يـصيب الأسـر الفقـيرة، نتيجـة تقلـيص الدولـة للدعم الاجتماعي لهذه الأسر" (28).

ومن أبرز مؤسسات العلم الديني المسجد والمدرسة والجامعة، ويلزم كل مؤسسة تعليمية حتى تنجح في أداء رسالتها أن يكون عملها منظماً وهادفاً وأن تواكب التطور في مناهجها وأساليبها وأنظمتها، وحين تتقوقع دون ذلك تفشل

---

[26] عن موقع الدين النصيحة.

[27] د.وليد بن عثمان الرشودي، رئيس قسم الدراسات الإسلامية في كلية المعلمين بالرياض.

28 ضمن محاور ندوة "الأسرة المسلمة والتحديات المعاصرة" التي تنظمها مجلة "البيان" بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المسلم- متابعات: | 1429/11/17

في بلوغ أهدافها وتجد نفسها تغرد خارج سرب المؤسسات المتطورة والناجحة، ويؤثر تخلفها سلباً على إحداث التغيير الإيجابي في أحوال الناس، وبخاصة في المجال الفكري والثقافي.

فتتعرض مؤسسات العلم الديني في بعض الظروف لموجات متنوعة من سياسات الإهمال والتهميش بهدف طمس معالمها ودثر آثارها وعرقلة قدراتها عن نشر العلم الشرعي في صورته المشرقة والشاملة والإيجابية.

والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في المجتمع تؤثر سلباً أو إيجابياً في مستوى الدور الذي تؤديه مؤسسات العلم الديني.

(4) تراجع دور مؤسسات العلم الديني

يأتي التراجع في مستوى مؤسسات التعليم الديني في سياق التراجع الذي تشهده مؤسسات التعليم العامة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية بشكل عام، فهذا وزير التعليم اليمني يصرح بأن مستوى التعليم الجامعي في اليمن يشهد تردياً بسبب ما أسماه " خطأ في بناء الهرم التعليمي" مطالباً بإيجاد تشريعات حديثة بعيدة عن التقليدية، ولها خاصية النفاذ والتطبيق.

وأكد الوزير في ندوة عن "واقع التعليم الجامعي... الإشكالات والمعالجات" انتفاء الحاجة للجامعات إن ظلت بعيدة عن خدمة المجتمع وتغييره نحو الأفضل، وقال: إن الجامعة إذا لم تقم بدورها في خدمة المجتمع المحيط، وتلمس البيئة المحيطة، فلا داعي لوجودها.

وخلال تشخيصه نواحي الضعف في مستوى التعليم العالي في اليمن، أبرز مستوى المناهج الدراسية، وطالب بأن يعاد النظر فيها، وحمل مستوى الأستاذ الجامعي المسؤولية الأكبر عن ضعف مخرجات التعليم في بلاده، وقال: إن عضو هيئة التدريس في الجامعة يحتاج لتطوير مهاراته وقدراته، وليس عيباً أن يغير تخصصه إذا لم يصبح مطلوباً في سوق العمل، منتقداً تحول معظم الأساتذة إلى نظريين.([29])

وتحدث عابدين([30]) (2004) عن التعليم الشرعي في مدارس القدس ومعاهدها، فبين أن المسلمين حرصوا ـأفرادهم وعلماؤهم وأمراؤهمـ على ترجمة المكانة المميزة لبيت المقدس إلى واقعٍ عمليّ، فتداعوا إلى المرابطة في المدينة المقدسة، وإلى إقامة دور العلم في أطرافها ومساجدها. فقد أحصى سبعون مدرسةً أنشئت في بيت المقدس منذ بداية الفتح العمريّ لها وحتى أواخر القرن الثاني عشر الهجريّ، عدا عن عشرات الخوانق والزوايا ومساجد النساء ودور الكتب.

لقد تعرضت المدينة المقدسة خلال تاريخها الطويل إلى كثير من المحن والبلايا، وغزاها الغرباء، ونكّلوا بأهلها وعاثوا فيها فساداً، وخرّبوا دور العلم والعبادة. ومع بدايات القرن الماضي وقعت المدينة فريسةً لمكائد بطانات السوء في الدولة العثمانية، ثمّ أسيرةً للظلم والعدوان وسياسة التجهيل التعسفية التي حمل وزرها البريطانيون عبر احتلالهم

[29] جريدة القدس –الفلسطينية- العدد 14170، كانون الثاني 2009.

[30] د. محمد عبد القادر عابدين، أستاذ مشارك – الإدارة التربوية / جامعة القدس.

المسمّى "الانتداب" ووعدهم البغيض المعروف بـ "بلفور". وإن ما تتعرض له المدينة في حاضرها المعاصر من استهداف للأرض، والإنسان، والحضارة، والتاريخ، والدين، والمقدّسات دليل على عِظَم الوزر البريطاني الذي استقزم أمام الخطيئة العربية المتمثلة باللامبالاة والقعود مع الخالفين، وأمام سلسلة الكبائر الأمريكية المتمثلة بزرع الفتن والأحقاد، وسلب الأمن والحب والسلام من أرض السلام.

ولعبت الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد إبان نكبة عام 1948م دوراً في عزوف مسلمي فلسطين عن التعليم الشرعي، حيث أدى انتشار التيارات العلمانية والقومية إلى إهمال الدين، كما انخفضت المراكز الاجتماعية والمكانة الوظيفية للأئمة والوعاظ والخطباء وتدنّت رواتبهم مقارنة برواتب أقرانهم في المراكز الحكومية الأخرى، مما أدى إلى عزوف عن الالتحاق بمؤسسات التعليم الشرعي.

ومن الأسباب الداخلية لمؤسسات التعليم الديني التي تؤثر على تدني مستوى أدائها تركيزها على أمور سطحية أو فرعية، وتجاهلها البحث أو التطرق لما يتعرض له الناس في حياتهم وما يحتاجونه في أعمالهم، وبذلك تتخلف المؤسسة عن متابعة نبض الجماهير والناس، فتصبح في منأى عن اهتمامهم.

ونظراً لعدم كفاية عدد أهل العلم الشرعي في البلاد، تمّ استقدام الأئمة والوعاظ والمدرسين من مصر والشام. أما الراغبون من أبناء فلسطين في التعليم الشرعي فكانوا يرتحلون إلى مصر والشام والعراق ويلتحقون بمعاهدها الدينية. وفي ظلّ هذه الظروف كان لا بدّ من إعادة الهيبة للتعليم الشرعيّ والاهتمام به تعلّماً وتعليما، الأمر الذي دفع إلى إنشاء المدارس والمعاهد المتخصصة به.([31])

(5) الغزو الفكري والثقافي

يأتي الغزو في اللغة بمعنى القصد والطلب، والسير إلى قِتالِ العَدُوِّ وانْتِهابه، والغِزْوَة: ما غُزِي وطُلِبَ ([32])

ويقصد بالغزو الفكري إغارة الأعداء على أمة من الأمم بأسلحة معينة، وأساليب مختلفة، لتكون تابعة للغازي، فيدمر قواها الداخلية والأخلاقية، وعزائمها وقوتها، ويغزو عقول ابنائها وأفهامهم، وينهب ممتلكاتها.

والفرق بينه وبين الغزو العسكري أن الغزو العسكري يأتي للقهر وتحقيق أهداف استعمارية دون رغبة الشعوب، أما الغزو الفكري فهو لتصفية العقول والأفهام لتكون تابعة للغازي.

وهذا المصطلح ظهر في بداية القرن العشرين، إلا أن الغزو الفكري موجود منذ القدم، وفي العصر الحديث رأى أعداء المسلمين أن الغزو العسكري يثير غضب الشعوب وحقدها وكرهها ومقاومتها، ففكروا في غزو عقول الشعوب وتبعيتها بما يريدون من الثقافات، التي تخدم العدو والتي لا تنتبه لها الشعوب إلا بعد فوات الأوان.

---

[31] عن كتاب التعليم الشرعي في مدارس القدس ومعاهدها، للدكتور محمد عابدين، 2004.

[32] لسان العرب، جذر غزا.

وقد كان المستشرقون ممن تولى كبر هذا الغزو، كما استطاع الأعداء عبر العلمانيين من بني جلدتنا أن يغزوا فكر كثير من الأمة حتى صارت ذيلاً للأعداء إلا من رحمه الله.

ولهذا الغزو أهداف ووسائل:

أهدافه:

التشكيك في المصادر الإسلامية، كالتشكيك في القرآن والسنة والتاريخ الإسلامي واتهام الصحابة وإثارة ما حصل بينهم من خلاف.

تشويه عقائد الإسلام وشرائعه وأعلامه ورموزه.

محاربة اللغة العربية الفصيحة.

إثارة النعرات القومية والعرقية.

بث الفرقة والمذاهب الهدامة.

إغراق الأمة في الشهوات والملذات.

بث الشبهات حول كل ما يمت إلى الإسلام بصلة.

التركيز على جانب المرأة وتحريرها من دينها وحيائها وأخلاقها.

ومن وسائلهم:

وضع المناهج الدراسية والتعليمية التي تخدم أغراضهم.

واستخدام سائل الإعلام المرئية والمسموعة، والمقروءة، و الإنترنت لذلك.

أما عن كيفية مواجهة هذا الغزو فإنه يكون بأمور منها:-

1-بيان خطر هذا الغزو على الأمة.

2- استخدام نفس الوسائل التي يستخدمها الغازي لتوعية الأمة بشرط تقيد تلك الوسائل بالضوابط الشرعية.

3- تربية الأمة وإرجاعها إلى دينها واستخدام كافة الوسائل المتاحة من أجل ذلك.

4- إزالة الشبهات التي يلقيها هذا الغزو في أفكار الأمة.

وصمام الأمان من هذا الغزو هو دعوة المسلمين وتربيتهم على أحكام الدين وآدابه، والله أعلم.([33])

والغزو الثقافي: أن تقوم مجموعة سياسية أو اقتصادية بالهجوم على الأسس والمقومات الثقافية لأمة من الأمم، بقصد تحقيق مآربها، ووضع تلك الأمة في تبعيتها، وتعمل المجموعة الغازية في سياق هذا الغزو إلى احتلال ذلك البلد بالقسر من خلال زرع معتقدات وثقافة جديدة مكان الثقافة والمعتقدات السائدة فيه.

---

[33] المصدر إسلام ويب.

فلفظ الغزو هنا مستعار من مجال السياسة والعلوم العسكرية، والحديث عن الغزو الفكري يحوي دلالات على الهيمنة والسيطرة التي تقصدها الجهة الغازية، ويعني هذا أيضاً وجود ثقافتين إحداهما تحاول استضعاف الأخرى والهيمنة عليها، فتحاول الأقوى محو الأضعف ونشر ثقافتها مكانها، وعادة ما يتأثر الناس بالثقافة التي تحملها الجهة المسيطرة والقوية وصاحبة النفوذ، وفي كثير من الأحيان ينبهر الضعيف بثقافة القوي فيحاول جهده لمحاكاتها.

ومن الأسباب التي ترتبط بالغزو الفكري تغير موازين القوى في العالم، فعندما سيطر الغرب على مجريات الأمور وأصبح صاحب القوة المتنفذة نشر ثقافته وفكره، في مقابل عمله الدؤوب لطمس الثقافات والأفكار الأخرى، وعلى رأسها الثقافة الإسلامية، وركز الغرب على قضايا الأسرة والمرأة، وقضايا الديمقراطية والحرية من منطلقاته الثقافية والفكرية، ويجب ألا يغيب عن البال أن الهيمنة الثقافية لا تنفصل عن الهيمنة السياسية، فالموقف من ثقافة الأمة يرتبط بموقع الأمة حاملة الثقافة بين بقية الأمم. ويشار هنا أيضاً إلى أن الغزو الفكري لا يقتصر على بقعة جغرافية دون سواها، ولا على فترة زمنية بعينها، بل هو آلة تتحرك في مواجهة ما يغاير أهدافها ونهجها.

والأمم العظيمة تعتز بفكرها النير وهويتها المستقلة، وترفض التقليد والتبعية العمياء، والإسلام أراد لأمته أن تكون شامخة الرأس عزيزة النفس، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ([34])

وحذر الله أمة الإسلام من الارتكاس لعوارض الوهن والضعف، فهي الأعلى إن حملت إسلامها على الوجه الذي يريده الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ([35])

وما كان للغزو الفكري أو العسكري أن ينال من عضد هذه الأمة لو تسلحت بإيمانها بالله، ويقينها بالنصر، وأخذت بتعاليم دينها، ووحدت صفها في مواجهة الأخطار المحدقة بها، والأعداء الذين يتربصون بها.

ويظهر الغزو الفكري على بلادنا بأشكال عديدة، يتمحور في معظمها حول سلخ الأمة من أصالتها وفكرها وثقافتها، وإحلال ثقافة العلمنة مكانها.

وتحت غطاء الشعارات البراقة التي يستخدمها الغازي لأمتنا في ظل وهنها، يتمكن من إصابتها بجراح صعبة تنال عقول أبناءها وقلوبهم أكثر من نيلها من أجسادهم وممتلكاتهم، من هنا يبرز أثر الغزو الفكري في عرقلة التنوير والإصلاح في فكر الأمة وثقافتها.

ويجدر التنبيه في هذا المقام إلى أن الغزو لن ينال على المدى البعيد من وجود الأمة، ولا من عقيدتها وفكرها النير، سواء أخذت دول الغزو الفكري العبرة أم لم تأخذ مما حصل مع أسلافها، فكلما أوقدوا ناراً للفتنة أطفأها الله، فما هي إلا زوبعات لن تلبث أن تزول، وقد أثبت حال الأمة في بلاد المغرب العربي ومصر والشام والجزيرة العربية

---

[34] آل عمران:110.

[35] آل عمران:139.

وبقية البلاد، خلال مواجهتها للحملات الغازية العاتية قدرتها على حفظ هويتها وشخصيتها من الضياع أو الانصهار.

وإذا ظن البعض أن شدة المكر والكيد سوف تحقق لهم ما يصبون إليه، فإنهم واهمون، فها هي الدول التي تقود مسيرة العالم تشن غزواً فكرياً بأساليب مباشرة وغير مباشرة، مركزة على المطالبة بتغيير مناهج التعليم بهدف إقصاء الإسلام عن التأثير في بناء الجيل، وتعزز عملها وخططها على درب سعيها للنيل من وجود الإسلام، فيريدونه جسماً بلا روح، وشكلاً دون مضمون، ليتمكنوا من بسط سيطرتهم على بلادنا وشعوبنا وخيراتنا وفكرنا وثقافتنا.

وتستغل كثير من وسائل الإعلام لخدمة أغراض الغزو الفكري والثقافي، ولا أحد يملك أن يشكك بقدرة الإعلام على إحداث التغيير وتجديد أنماط السلوك والفكر حسب المنطلق الذي تنطلق منه.

فلا مناص لأمة الإسلام من أن ترسي قواعد للثقافة وضوابط للفكر، تسير وفقها وفي فلكها منهاج الدراسة، ومواد الإعلام، دون قبول الانحناء أمام إملاءات فكرية أو ثقافية وافدة من هنا أو هناك، بغض النظر عن مصدرها وأهدافها.

والأمة بحاجة لتكيف أمورها وفق مبادئها وقيمها، وبما يضمن لها مواكبة التطور الحاصل في الأساليب والوسائل سواء في مجال التعليم أم غيره من المجالات، وذلك بهدف المحافظة على أصالتها من ناحية، ودون أن تتخلف عن ركب المدينة والحضارة المعاصرة من ناحية أخرى. ومن المهم هنا التركيز على بناء شخصية الفرد الذي يعتز بدينه ومبادئه وهويته وانتمائه ليؤدي ما يناط به من دور على كل صعيد في هذا الإطار.

(6) الآثار السلبية للعولمة

عرفت العولمة بأنها: وصف للعمليات التي بها تكتسب العلاقات الاجتماعية نوعاً من عدم الفصل ـسقوط الحدودـ وتلاشي المسافة؛ حيث تجري الحياة في العالم كمكان واحد ـقرية واحدة صغيرةـ ومن ثم فالعلاقات الاجتماعية التي لا تحصى عدداً أصبحت أكثر اتصالاً وأكثر تنظيماً على أساس تزايد سرعة تفاعل البشر و ومعدل تأثرهم ببعضهم البعض.([36])

وإن الدعوة إلى العولمة ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية بهذا المعنى، في أوساط المال والاقتصاد، والأمر يتعلق ليس فقط بآلية من آليات التطور الرأسمالي الحديث، بل أيضا بالدعوة إلى تبني نموذج معين. وبالتالي فالعولمة إلى جانب كونها نظاما اقتصاديا، هي أيضا أيديولوجية تعكس هذا النظام وتخدمه وتكرسه. وهناك من الكُتاب من يقرن بينها وبين "الأمركة"، أي نشر وتعميم الطابع الأمريكي.([37])

---

[36] يمكن مراجعة العولمة مفهوم العولمة، عمرو عبد الكريم، موقع إسلام أون لاين نت.

[37] خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، مفهوم العولمة وماذا تعني؟ الشيخ يوسف القرضاوي، (2003) موقع إسلام أون لاين.

فالدول المتنفذة تعمل على بسط سيطرتها ونفوذها بأساليب مختلفة، وكان من تلك الأساليب اختلاق منهج خاص سمي بـ "العولمة" التي أضحت تجتاح كثيراً من المجالات برياح التغيير نحو أفكارها وغاياتها، فهي تؤثر على أنماط السلوك السائدة، وتسعى لأن تكون الموجه للفكر والقيم والسلوك، لتحقيق غاياتها البعيدة.

وفي المجال الاقتصادي تواجه المصارف الإسلامية تحديات العولمة، وقد بحثت هذه القضية في مواقع بحثية مختلفة، فحول هذا الموضوع عقد مؤتمر عام 2001 في عمان، وتركزت محاور الأوراق التي قدمت إليه حول تحليل الجوانب الإيجابية والسلبية لظاهرة العولمة بكافة مستوياتها الاقتصادية والسياسية والثقافية والقضائية والاجتماعية، وأشارت بعض تلك الأوراق في مجال سلبيات العولمة إلى آثار العولمة على إضعاف سيطرة الدولة القطرية، وانخفاض التوظيف والوظائف.

يقول القرضاوي: فالعولمة في أجلى صورها اليوم تعني تغريب العالم، أو بعبارة أخرى أمركة العالم. فهي اسم مهذب للاستعمار الجديد الذي خلع أرديته القديمة، وترك أساليبه القديمة ليمارس عهدا جديدا من الهيمنة تحت مظلة هذا العنوان اللطيف (العولمة).

فالعولمة تعني فرض الهيمنة الأمريكية على العالم، وأي دولة تتمرد أو تنشز، لا بد أن تؤدب بالحصار أو التهديد العسكري أو الضرب المباشر، كما حدث مع عدد من الدول العربية والإسلامية على وجه الخصوص.

وكذلك تعني العولمة فرض السياسات الاقتصادية التي تريدها أمريكا عن طريق المنظمات العالمية التي تتحكم فيها إلى حد كبير، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية وغيرها.

كما تعني فرض ثقافتها الخاصة التي تقوم على فلسفة المادية والنفعية وتبرير الحرية إلى حد الإباحية، وتستخدم أجهزة الأمم المتحدة لتمرير ذلك في المؤتمرات العالمية، وتسوق الشعوب إلى الموافقة على ذلك بسياط التخويف والتهديد، أو ببريق الوعود والإغراء. ([38])

وحتى يكون الموقف من العولمة موضوعياً، لا بد من تمييز خيرها وشرها، للأخذ بالإيجابي ونبذ السلبي، فحين تهدف العولمة إلى طمس هوية المسلمين وثقافتهم، وتهدد نسيجهم الاجتماعي والحضاري، وتتجاوز مبادئهم وقيمهم، وتوسع البون بين فقرائهم وأغنيائهم، وتدهور مستويات معيشتهم، فهي سلبية معادية تستدعى الخصومة والنبذ.

وأما حين تقدم العولمة ما يفيد في مجالات الزراعة والصناعة وتحديث وسائل الاتصال وتطور أساليب التعليم والتربية بما لا يتعارض مع مبادئهم وقيمهم، فإنها تكون جديرة بالأخذ، استناداً، لقوله صلى الله عليه وسلم:" الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا". ([39])

ومن وسائل وأساليب مواجهة سلبيات العولمة التي تعرقل عمليات التجديد المنشود في الفكر الإسلامي، ما يلي:

---

[38] يمكن مراجعة العولمة هل تعزز المصارف الإسلامية، حمودي، عبد الكريم (2001) موقع إسلام أون لاين.
[39] سنن الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله، باب، ما جاء في فضل الفقه على العبادة.

العمل على تنمية الفكر ونشره وعرضه ومناقشته بوسائل متطورة.

والتحرر من التقليد الأعمى وبخاصة في مجالات الفكر والثقافة.

وتنقيح الروايات التاريخية والدينية، سيراً على نهج علماء الحديث الذين اعتمدوا السند سبيلاً للتوثيق.وتحديث وسائل التعليم وأساليب التربية، ووضع سياسات واضحة وراسخة لذلك.

وفتح المجال للتفاعل الثقافي مع الثقافات الأخرى في ضوء الثوابت الدينية ومدى الحاجة لذلك.والاهتمام بالعقول المثقفة والمفكرة، ودعوتها لإحداث التجديد المطلوب، في إطار المحافظة على الهوية الإسلامية لمجتمعاتنا وفكرنا وثقافتنا.

سبل مواجهة معوقات تجديد الفكر الإسلامي

مما لا شك فيه أن محاولة تعبيد الطريق أمام تجديد الفكر الإسلامي في ضوء الضوابط الشرعية، لن تكون مهمة سهلة، فهي بحاجة إلى إحداث تغيير في السياسات التربوية والإعلامية وإدارة شؤون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويشمل التغيير المطلوب الخطط والمناهج والأدوات والأساليب.

وبشكل عام يمكن اقتراح سبل قد تجدي في التصدي للمعوقات التي تعترض مسيرة تجديد الفكر الإسلامي، ومن تلك السبل:

إعداد الداعية الإعداد السليم ليشارك في رسم خطط التوعية وتنفيذها، متخطياً بذلك دوره التقليدي الذي ينحصر في إطار الوعظ والإرشاد، إلى أن يكون عضواً فاعلاً في حركة الحياة العصرية، وعنصراً نشطاً في مقاومة الخرافة والأوهام والجمود الذي يشد المجتمع إلى الخلف.

وإيجاد نظام تعليمي يحقق للأمة المحافظة على هويتها وعقيدتها ومبادئها، ويتيح لها في الوقت نفسه مواكبة التطور.

وإجراء إصلاحات جذرية في مضامين الإعلام والتعليم وأساليبهما وخططهما، في إطار الأخذ بمبادئ الإسلام وأحكامه وقيمه، ومواكبة التطور الحاصل في الحياة.

نشر الوعي الخاص بموقف الإسلام الصحيح من الحداثة والتطور والإبداع، وبيان المسموح والممنوع بهذا الصدد.

فتح المجال للحريات المضبوطة بمبادئ الشرع الحنيف وأحكامه، لتبدع في مجال تطوير الفكر.

إحياء روح الاجتهاد في الأمة، لتتمكن من مواكبة المستجدات والوقائع الحادثة بأساليب ومضامين تؤكد صلاحية الإسلام للحياة، بدلاً من الحكم عليه بالتخلف والتقوقع والرجعية.

خلاصة البحث وخاتمته

يتميز الفكر الإسلامي بخصائص تؤهله للمحافظة على جذوره ومواكبة تطورات الحياة على اختلاف ظروفها وأحوالها، وهو يكتسب هذه الميزة من الدين الإسلامي الذي ينتمي إليه، فالغايات والأهداف والمبادئ والقيم في الإسلام ثابتة،وبمقتضى مرونة الإسلام فإن المجال للتجديد متاح في الوسائل والأساليب، ولم يفرض الإسلام على المسلمين التقوقع ولا يقبله لهم، لأنه يتناقض مع خلود الإسلام وبقائه صالحاً لكل زمان ومكان، فالمطلوب الاجتهاد في ضوء الثوابت والأدلة الثابتة، ولا يصح لشخص أو فئة احتكار الحقيقة تحت أية ذريعة او ادعاء بشرط مراعاة ضوابط الشرع وأصوله الثابتة في الورود والدلالة.

ورغم هذه الحقيقة فإن حركة التجديد في الفكر الإسلامي ليواكب التطور دون أن ينخلع من جذوره وأصوله تواجه مصاعب، وتعترضها معوقات كبيرة، من أبرزها الجمود والتقليد، والتبعية العمياء لشخص أو قبيلة أو حزب، فهذه التبعية مرفوضة بنص القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ومواقف علماء السلف الصالح، وفي هذا السياق يأتي الغلو المذهبي كعقبة كأداء تعترض سبيل التطور والنماء والإصلاح في الفكر الإسلامي وغيره، فالتعصب المذهبي مقيت، حتى وإن كان لمذهب فقهي معتبر أو فكرة نبيلة، إذ أن الإسلام جاء بفكر مستنير، وحث على إعمال العقل والنظر والتفكر، وذم معطلي العقول بالحجر القهري أو الإرادي.

وتتضافر مصادر التثقيف السيئة سواء أكانت إعلامية أم تعليمية أم غيرهما في التشويش على حركة تجديد الفكر الإسلامي، وبخاصة في عصرنا الذي يتميز بسرعة الاتصال وعمق مداه، وإذا فشلت مؤسسات التثقيف الإسلامية عن التصدي للحركة المضادة التي تشنها المؤسسات والوسائل المسيئة فإنها تفسح المجال واسعاً للحملات المعادية لتحقق أهدافها في تجهيل المسلمين والنيل من فكرهم وثقافتهم بالطعن والتهميش والتشكيك والتشويه.

ومن العوائق الخارجية التي تعترض حركة تجديد الفكر الإسلامي تلك المتمثلة بحملات الغزو الفكري والثقافي، والتي لا يقل خطرها عن الغزو العسكري، فالغزو الفكري قد يفوق خطره وأثره الغزو العسكري، إذ إن العسكري يكون ظاهراً للعيان، ويأخذ الناس منتهى حذرهم منه بخلاف الفكري والثقافي فهو يأتي في كثير من الأحيان بأساليب مبطنة ظاهرها الخير والتطور وباطنها الردة والعذاب والتشكيك في القيم والمباديء حتى أن الناس أحياناً ينسلخوا من جذورهم دون أن يشعروا بأنهم قاموا بذلك خدمة لأغراض الغزاة.

ومن آخر صرعات الغزو الثقافي والفكري ما اصطلح على تسميته بالعولمة التي تستهدف الفكر الاقتصادي والحياة الاجتماعية بالتغيير الموجه من جهات معلومة تمسك بزمام القوة والنفوذ في هذه المرحلة التاريخية.

وأمام الغزو الفكري والثقافي والعولمة يبرز دور الاعتزاز بفكر الأمة النير وهويتها المستقلة، في مواجهة التقليد والتبعية في صورها الجديدة، وأمام هذه المعوقات وأشباهها يلزم القيام بأعمال تتصدى لذلك عبر وسائل وسبل مناسبة، فلا تجدي الشعارات والاعتراضات والاستنكارات بقدر ما يجدي العمل والمثابرة والمسارعة للمواجهة، من خلال تطوير وسائل وأساليب التربية والتعليم، إعداد الدعاة بصفتهم مصلحين اجتماعيين وموجهين لفكر المجتمع وقيمه.

ولا بد من إصلاح الإعلام سواء من حيث الخطط، والمواد أمالأدوات ووسائل البث والعرض، وبما يضمن المحافظة على الثوابت والأصالة، مع مواكبة التطور، والعمل للتحديث المنشود.

المراجع والمصادر

- القرآن الكريم
- ابن حنبل، المسند.
- ابن منظور، لسان العرب.
- ابن القيم، أعلام الموقعين.
- الألباني، صفة صلاة النبي – صلى الله عليه وسلم.
- أبود داود، سنن أبي داود.
- الترمذي، سنن الترمذي.
- جامعة القدس المفتوحة، 2007، مقرر الثقافة الإسلامية، ص 76-78.
- عابدين، محمد عبد القادر،2004، التعليم الشرعي في مدارس القدس ومعاهدها.
- مسلم، صحيح مسلم.

دوريات صحفية ومصادر الكترونية

- جريدة القدس– الفلسطينية- العدد 14170، كانون الثاني 2009.
- جريدة الشرق الأوسط، العدد 9135، 2003.
- مجلة هدى الإسلام، العدد 157، دعوها فإنها منتنة، إبراهيم عوض الله، 2003.
- موقع إسلام أون لاين نت. www.islamonline.net ، عدة مواضيع.
- موقع إسلام ويب.www.islamweb.net
- موقع جريدة الوسط العراقي، www.iraqiwasat.com مفهوم التجديد الديني، عبد الله اليوسف، 2007.
- موقع الدين النصيحة، www.islamadvice.com
- وقع المسلم، .almoslim.net-متابعات، 1429 ، الرشودي ضمن ندوة "الأسرة المسلمة والتحديات المعاصرة" التي تنظمها مجلة "البيان" بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.